مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ

النهضة العربية بين الإصلاح والفشل

د. هنادي أمين
استاذة جامعية

العدد صفر – اذار / 2022

مقدمة

كانت الناس زمن الجاهلية تعبد الأصنام، ومع مجيء الاسلام وانتشار مبادئه، حطمت الأصنام ونشرت المعتقدات السماوية السمحة التي بنت دولة وأمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (آل عمران، 110). الا ان بعضاً من هذه الأمة سرعان ما تحول عن المعتقدات الاسلامية، لتظهر معتقدات وأفكاراً وفلسفات يصح أن نطلق عليها " بالوضعية"، تحول بعضها الى أديان، وبعضها الى تيارات ومذاهب، والآخر عاد بالزمن الى العصر الجاهلي السابق على دين النبي محمد، فحرّفوا في الاسلام الكثير، وأخرجوا من داخل الاسلام تأويلات وأفكاراً وتفسيرات منحرفة أدخلت جزءاً من الأمة في غياهب الجهل الذي حاول الاسلام اخراجها منه.

1 – ما هي أسباب الفشل الذي أصاب الأمة عبر عصورها المتأخرة؟

2 – كيف يمكن معالجة المشاكل المتراكمة عبر العصور والتي أضعفت هذه الامة؟

3 – ما هو دور الاستعمار في زيادة تخلف الامة وتشرذمها؟

4 – أين دور الإصلاح والمصلحين في علاج أمراض المجتمع الفكرية والثقافية؟

ويعرض عبد الرحمن الكواكبي في كتابه أم القرى لحال الامة وما ألت اليه:" ... فتابع المولى الرومي كلامه فنسب مصيبة المسلمين وتأخرهم الى العلماء الرسميين الذين أطلق عليهم اسم " الجهلة المعممين" إذ جعلوا المراتب وفقاً عليهم يتوارثونها أبا عن جد، ويطلقون على انفسهم الالقاب الرنانة، ويماشيهم السلطان في جهلهم، حتى أنهم جعلوا التدريس والارشاد والوعظ والخطابة والامامة وسائر الخدمات الدينية كالعروض تباع وتشرى وتوهب وتورث يبيعها القضاة إذ شاؤوا لمن يريدون " (بيرو، بلا ت: 15)

ولم يكتف الكواكبي بتحميل تبعة التخلف الذي أصاب هذه الأمة الى بعض رجال الدين من اتباع السلطة بالتحديد، بل هو يتوسع في الشرح ويؤكد بأن اسباب الفوضى التي اصابت المسلمين هي أيضاً نتيجة "الجهل المطلق " (الكواكبي، 2012: 68–69)، هذا الجهل الذي اعتبره الكواكبي أنه لا يعاتب

عليه العامة، الا ان مسؤوليته تحمّل الى العلماء والفقهاء، هل لأن العلماء أصحاب فكر ولا يرغبون في نشر أفكارهم؟ أم هي مشكلة ثانية أيضاً؟ ويستنتج الكواكبي السبب بقوله أنه " الفقر الفكري" عند العلماء " المزيفين" هؤلاء العلماء " الذين إنغمسوا في هاوية التصوف ليخدعوا المؤمنين " (الكواكبي، 2012: 11)

هكذا يبدأ عبد الرحمن الكواكبي، بتحميل تبعة المسؤولية في تنامي الجهل والتخلف في العالم الاسلامي، في أواخر القرن التاسع عشر وما قبله، الى العلماء ورجال الحكم الذين تبنوا هؤلاء العلماء ووزعوا عليهم الرتب والوظائف، وبالتالي صنعوا العلماء الجاهلين، فيهاجم الكواكبي هذه الفئة من الحكام، فيعتبر أن هؤلاء الأمراء حمقى (الكواكبي، 2012: 64).

هذا الواقع الذي كان منتشراً في زمن الكواكبي، لم يغب عن احد أبرز المصلحين في ذلك العصر، ألا وهو السيد جمال الدين الأفغاني، الذي حذر بدوره من ابعاد الدين عن العلم ونتائج ذلك على المجتمعات الاسلامية، فالدين عنده يجب أن يتوافق والعلم، فيقول:" إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله" ثم يضيف:" عم الجهل وتفشي الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن بريء مما يقولون " (قلعجي، 2013: 20)

لقد أدرك جمال الدين الأفغاني حقيقة تخلف الأمة، وجهل بعض العلماء ممن وصلوا الى أبواب السلطان، ودور هذا السلطان في تنبيههم، وبالتالي فهو يوجد الحلول للأزمة التي تعاني منها بلاد الاسلام، الأزمة الدينية بوجود هؤلاء، الذين جمدوا الدين حسب أفكارهم وعلى قدر عقولهم، لذلك دعا الى التجديد والاجتهاد وتطهير الدين من الشوائب والبدع والتفاسير، كي لا يبقى جامداً أو " حرفاً ميتاً في شروح الرجعيين ومتون المفسرين الذين لم يفهموا نصه وروحه على وجهيهما الصحيح " (قلعجي، 2013: 21)

وأما الشيخ محمد عبده احد انجب تلاميذ الافغاني فيقسم رجال الدين في زمانه الى ثلاث فئات:

الفئة الأولى، هم رجال الدين الذين يعملون على توجيه الناس الى امورهم الخاصة والعامة، وهؤلاء عند الشيخ محمد عبده، هم "إلا أقلهم، إنما يحفظون القرآن لفظاً بغير معنى، يدّعون الايمان به والغيرة عليه وهم أبعد الناس عن سنته وأشدهم التواء على أمره ونهيه... يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم... وأوهام يبثونها بين الناس على أنها من الدين وما هي من الدين في شيء، ولكنها قد شاعت واستحكمت

فكبلت شعوبهم بقيود ثقيلة، تمنعها من السير، وضربت على أعينهم غشاوة تحول بينها وبين رؤية النور، وحجرت عقولهم فلا تحسن التفكير والتقدير "

الفئة الثاني: هم المتصوفون الذين يعتبر الشيخ محمد عبده أن الناس قد افتتنت بهم "بعد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أنداد لله" (رضا، 2006: 851)

الفئة الثالثة: الفقهاء الذين "احتقرهم الأفراد والسلاطين في أنفسهم واستخدموهم لأغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغابئهم ..." (رضا، 2006: 851)

ويصور الشيخ محمد عبده هؤلاء بأنهم " قد اتخذوا دينهم متجراً يكتسبون به الحطام " (رضا، 2006: 928)

هكذا، وأمام انتشار الجهل في العالم الاسلامي والعربي، ظهرت نخبة ممن عرفوا برجال عصر النهضة، وقد سعى هؤلاء الى تحرير العقول من الصدأ الذي سيطر عليها، ومواجهة انواع الظلم والاستبداد، التي مارستها السلطة العثمانية من جهة، وهي وريثة التخلف والاستبداد المملوكي، والاستعمار الغربي من جهة أخرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا.

لقد تحولت الشعوب العربية في تلك الفترة الى شعوب مفككة الأوصال أصابها الوهن، وغرقت في الجهل، تلهوا بالأضاليل والأماني، وتباهوا بأعمال وامجاد الاسلاف (قلعجي، 2013: 157) حتى قال الشيخ محمد عبده فيهم بأن المسلم قد "أخطأ في فهم ما ورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلمين وأن رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه، فإن أصابته مصيبة او حلت به رزية، تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارئ أو ينهض الى عمل لتلافي ما عرض من خلل، أو مدافعة الحادث الجلل " (رضا، 2006: 457)

14 .دور الاستعمار

هذا الواقع السيء الذي أصاب العالم العربي والاسلامي وهذا التخلف العلمي الكبير كانت تغذيه السياسة الغربية، التي رغبت في ترك عامة الناس وعلمائهم في غياهب الجهل، كي تتمكن من السيطرة عليهم وفي نفس الوقت عمدت الى نشر أفكار تصب في مصلحة المستعمر وأهدافه البعيدة المدى، وفي ذلك نورد:

- لويس التاسع، ملك فرنسا، الذي قال بعد أن خرج من السجن في مصر، بعد هزيمة حملته عليها: " إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده، فقد هزمتم أمامهم في معركة السلاح، ولكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكمن القوة فيهم " (قطب، 1986: 196)
- مع دخول الانجليز مصر عام 1822، خاطب رئيس وزراء بريطانيا " جلادستون" أعضاء مجلس العموم البريطاني، وهو يشير الى القرآن الكريم:" طالما كان هذا الكتاب في ايدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد " (قطب، 1986: 196)
- وها هو نابليون بونابرت، بعد دخوله مصر عام 1798، يحضر معه الى جانب الجيش والمطبعة والبعثة العلمية " الساقطات" الذين أتى على ذكرهن الجبرتي في كتابه عجائب الآثار:" أولئك الساقطات اللواتي جاء بهن نابليون، يسرن في شوارع القاهرة حاسرات متخلعات يثرن الفتنة وينشرن الفاحشة. (الجبرتي، بلا ت: 231، 244، 245، 251، 436)

ثم عمد المحتل الانجليزي الى ضرب الأزهر نفسه واضعافه، ولكن ليس بطريقة نابليون، الذي قصفها بالمدفعية، فلقد تم ابعاد الطلاب عن الأزهر عبر سياسة طويلة الأمد، فقد فتحت المدارس الجديدة وعلى المنهاج الغربي، فكان يتم تعيين طلاب هذه المدارس بعد تخرجهم مباشرة وخلال أربع سنوات، في دواوين الحكومة برواتب كبيرة تمكنهم من أن يتزوجوا ويستأجروا بيتاً ويدخروا فوقها، أما خريجو الأزهر وبعد عشرين عاماً من التعليم لا يجدون عملاً وان وجدوه ففي المساجد وبمبلغ زهيد، وبالتالي لم يعد يقصد الأزهر الا الطلاب الفقراء – مع ما يعانيه الأزهر من تخلف فكري وعلمي حينها– ممن يعجزون عن دفع أقساط المدارس الانجيليزية، بينما تتوجه الأسر العريقة الى المدارس الحديثة لتعليم ابنائها (قطب، 1986: 203)

أمام هذا الواقع، خرج رجال النهضة يواجهون التخلف والتحجر عند رجال الدين والعامة من الناس، وفي نفس الوقت يتصدون للمستعمر من جهة أخرى، وتخلف النظام العثماني فكان رجال عصر النهضة لا يرون

ان المستعمر وحده يتحمل مسؤولية هذا التخلف الثقافي بل المجتمع نفسه والسلطة الحاكمة، الا ان المستعمر استفاد من هذا الواقع ليزيد الأمور سوءاً.

ويجمل الكواكبي التأخر الذي أصاب العالم الاسلامي في حينه بقوله وهو يخاطب المجتمعات الاسلامية:".. تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين، وتشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون في اصلاحهم، تشكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجوه لا تفكرون

في احكامها، تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل، هل ترجون الصلاح وانتم يخادع بعضكم بعضاً ولا تخدعون الا انفسكم، ترضون بأدنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة، وتهملون شؤونكم تهاوناً تسمونه توكلاً تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله، وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر..." (الكواكبي، 2006: 151)

أما الأفغاني فيعتبر ان الاستعمار لا يتواجد الا في البلاد الخاضعة والخانعة:" لا تسير دول الاستعمار الا الى البلاد الغنية في ثروتها ومعادنها، وخصب تربتها، ومن كان أهلها في الدرك الأسفل من الجهل، قد خيم عليهم الخمول، لايبدون حراكاً ولا يقربون عراكاً " (قلعجي، 2013: 82).

أما الشيخ محمد عبده فيظهر اسباب ما وصلت اليه حال الامة الاسلامية بقوله: " المسلمون قد تحيّف الدهر نفوسهم، وانحنت الأيام على معاقد ايمانهم، وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق، وانتكاس في الطبائع، وانحطاط في الأنفس، حتى اصبح الجمهور الأعظم أشبه بالحيوانات الرتع، غاية همهم أن يعيشوا الى منقطع اجيالهم، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتنافسون في اللذات البهيمة..." (قلعجي، 2013: 156)

ومن الصور على الخرافات التي كانت منتشرة حينها كان لجؤ الناس الى المشعوذين، وكان ميدان الأزبكية في القاهرة في تلك الفترة، يزدحم بهؤلاء الذين كانت الناس تقصدهم في سبيل استطلاع الغيب.

وعادة " الدوسة" حيث ينطرح الناس ارضاً مصطفين الى جانب بعضهم بعضاً، حيث يقوم أحد المشايخ من الصوفية بدوسهم وهو على ظهر حصانه واحداً بعد الآخر، حيث كانت تعتبر بركة (عزب، 2009: 14).

15 .طرق الإصلاح

15.1. جمال الدين الأفغاني وطرق الإصلاح

يعتبر جمال الدين الأفغاني من ابرز رجالات الاصلاح في العالم الاسلامي، فقد كان فيلسوفاً ومصلحاً دينياً، كما كان منفتحاً على افكار التنوير في اوروبا، حاول تحطيم السد الذي اقيم في وجه الفلسفة، معتبراً ان الاسلام هو دين العقل والنظر والمناقشة (الشريف، 2000، أ: 108)

دعا جمال الدين الافغاني الى اصلاح الدين الاسلامي، فواجه المؤسسة الدينية الرسمية واصحاب البدع، معتبرا ان اسباب ضعف العالم الاسلامي هو " الجهل" (الشريف، 2000، أ: 109)

سعى جمال الدين الافغاني الى ايقاظ الأمة من جهلها، الجهل في الدين والعلم والسياسة، فها هو يقول في الاجتهاد:" ما معنى ان باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد؟ أو اي امام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي ان يجتهد ليتفقه بالدين... او ان يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه... والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن واحكامه؟ "(قلعجي، 2013: 21)

هكذا بدأ الأفغاني بالدعوة الى التجديد في الدين معتبراً أن هذه الحركة ينبغي ان تكون كحركة مارتن لوثر في اوروبا خلال عصر النهضة على الكنيسة الغربية الكاثولكية (قلعجي، 2013: 22)

فمن الضروري ان تثبت العقائد الدينية الحقة، وان تشرح على وجهها المناسب، كما من الضروري تهذيب العلوم الاسلامية وفهمها لتساعدنا على التقدم لا التأخر، بذلك دعا الأفغاني الى تحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم حاجات العصر (قلعجي، 2013: 22)

- لقد كانت دعوة الأفغاني أشمل وأوسع عندما اعتبر أن نهوض الأمة لن يتحقق بوجهه الصحيح الا عبر أحزاب وطنية تجمع الشتات من هذه الأمة وتوحدها للعمل في سبيل الوطن (قلعجي، 2013: 52)

- وها هو يؤسس الحزب الوطني في مصر ويضع له برنامجاً سياسياً، والملفت للنظر ان هذا الحزب كان سياسياً بحتاً لا دينياً، انتسب اليه المثقفون من كافة الأديان والمذاهب، وتدخل في العمل السياسي في مصر، وأطلق شعار " مصر للمصريين" (قلعجي، 2013: 55)

- كما هاجم الأفغاني التدخل الأجنبي ونظام الحكم المستبد في مصر، ودعا الى الثورة:" أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق الذين يأكلون ثمرة اتعابك؟ " (قلعجي، 2013: 58)

- وأمام قوة جمال الدين الأفغاني وحركته الاصلاحية داخل مصر وتحريكه للشارع المصري ودوره في حركة أحمد عرابي، ضغطت الحكومة البريطانية على الخديوي توفيق، بعد ابعاد والده الخديوي اسماعيل، وصدر قرار ابعاد الأفغاني من مصر (قلعجي، 2013: 63)

- لقد كان جمال الدين الأفغاني، المنبه الاول للثورة المصرية على الاستبداد والاستعمار، وكان صوته أول الأصوات التي ارسلت صيحة الحرية التي ترددت فيها (قلعجي، 2013: 64)

- عمل بجد على صنع جيل يكمل نهضته، جيل " لا يثني عزمهم الوعيد ولا يغرهم الوعد بالمناصب وتلهيهم التجارة والمكاسب، بل قوم يرون في المتاعب والمكاره في نجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم وفي عكسه المغرم " (ابو رية، 2006: 117)

لقد كانت "الغاية التي يرمي اليها جمال الدين، والغرض الأول في جميع جهوده التي لا تعرف الكلل ومن اثارته للنفوس وتهييجه المتواصل للناس، توحيد كلمة الاسلام وجمع شمل المسلمين في سائر أقطار العالم ...وقد باتت أقطار المسلمين غارقة في وهدة الجهل واليأس فأصبحت فريسة للاعتداء الأوروبي " (ابو رية، 2006: 48)

15.2. الامام محمد عبده وطرق الإصلاح

مع وصول جمال الدين الأفغاني الى مصر أخذ يعقد حلقات التدريس في منزله وشملت دروسه عن فلسفة الاسلام وفلاسفته، وكان الشيخ محمد عبده ممن يحضرون هذه الدروس وتأثروا بالأفغاني ليصبح الشيخ محمد عبده من رجالات الاصلاح في أواخر القرن التاسع عشر،

يعتبر الشيخ محمد عبده أن أفضل أنواع الاصلاح هو " التربية" لذلك دعا الى اقامة مدرسة اسلامية تخرج المصلحين ويكون هدفهم غرس التهذيب في القلوب عند العامة، والتربية والتعليم بعيداً عن السياسة والسياسين وفي ذلك يقول:" إني لأعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة واهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء وعليه يبنى كل شيء" (عمارة، 2006: 682) فالامام محمد عبده، يعتبر ان مواجهة الغزو الأجنبي عبر المدارس الأجنبية لا يكون " الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم "(عمارة، 1985: 202)

فالمشاكل التي يعاني منها المجتمع من استعمار ومشاكل اجتماعية واقتصادية لا حلول لها الا بالتربية، فمشاكلنا "هي فقر العقول والتربية " (عمارة، 2006: 168)

فالانسان عند محمد عبده إذا فقد التربية لن يستطيع بالتالي أن يتحلى بالعدل والغنى والكمال (عمارة، 1985: 215).

هذه التربية لم تكن عند الشيخ محمد عبده كما كانت منتشرة في العالم الغربي حينها، أو من خلال المدارس الغربية التي بدأت تنتشر في العالم العربي، كما ان التربية عند الشيخ محمد عبده لن تنفع إذا اقتصرت على الطبقات العليا من المجتمع:" ان الأمة في حاجة الى تربية الطبقات الدنيا ..لأنهم هم الذين يقومون بمعظم الشؤون وأكثر الحرف التي لا يستغنى عنها الخواص ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدي التربية فاقدي الآداب " (عمارة، 2006: 175)

بذلك سعى الامام محمد عبده الى اصلاح الأزهر الذي كان من أبرز مدارس مصر التي تخرج الطلاب من العالم الاسلامي وتستحوذ على ابناء طبقات المجتمع: " إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر محال، فهو إما ان يعمر واما ان يتم خرابه " (عمارة، 2006: 193)

لقد عاني الشيخ محمد عبده كثيراً في سبيل اصلاح الامة واخراجها من تخلفها الشديد، فعندما سأله الشيخ رشيد رضا عن سبب نومه بالنهار على غير عادة اجابه:" أرقني الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء ببعدهم عن دينهم واتباع أهوائهم وشهواتهم."(عمارة، 2006: 211)

في الواقع فان الشيخ محمد عبده كان يشتكي دائماً من جمود العلماء والفقهاء، وهو لم يندد فقط في التعليم المتبع في الأزهر وأيضاً في المسجد الأموي في دمشق والزيتونة وجامع القيروان في تونس، حيث انشغال الطلاب في أمور تضيع أوقاتهم ولا فائدة منها (قلعجي، 2013: 274)

لقد هدف الشيخ محمد عبده من اصلاح الأزهر الى اصلاح العالم الاسلامي فالآف من الطلاب يتوافدون على الأزهر وبعدها يعودون الى بلدانهم، من كافة أنحاء العالم الاسلامي، كما ان معظم مدرسي المدارس المدنية هم من خريجي الأزهر (41) واستطاع أن يدخل الى مجلس ادارة الازهر، الا انه فشل في مسعاه الاصلاحي هذا، ليستقيل من هذا المجلس، بسبب الضغوط الشديدة التي تعرض لها وليتوفى بعد اشهر قليلة عام 1905 (قلعجي، 2013: 289)

15.3. الكواكبي وطرق الإصلاح

يعتبر الكواكبي ان اسباب انحطاط العالم العربي والاسلامي عند أغلب المفكرين قد انقسم الى ثلاثة آراء:

الأول اعتبره في التهاون في الدين

الثاني وجده في اختلاف الآراء

الثالث وجده في الجهل (الكواكبي، 2006: 183)

أما عند الكواكبي نفسه فقد ظهر أن اسباب هذا الانحطاط هو "الاستبداد السياسي والتعصب الديني " وبالتالي فقد درس ظاهرة الاستبداد هذه لينتهي بكيفية التخلص منه (حمية، 2003: 14)

يجد الكواكبي الحلول من خلال " الشورى الدستورية"، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يدعو الكواكبي رجال الدين الى القيام بمهامهم الطبيعية الا وهي التبشير بالدين وعلى المسلمين تدبير شؤونهم الدنيوية (حمية، 2003: 17) وقد يكون موقف الكواكبي هذا يعود الى اعتباره أن أصول الدين تركت واتبعت المزيدات التي ليست منه أساساً، لذلك فهو يعتبر ان حال المسلمين أصبح كحال المشركين ولا

يمكن اصلاح هذا الامر الا برد العامة من ميلها الى الشرك اولاً وهذا يحتاج الى التعليم وترك الاختلاف: " فلا بد ان نترك جانباً اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليداً، والاعتماد على صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع " (طحان، بلا ت: 19)

وطالب الكواكبي من العلماء مقاومة فكرة التعصب المذهبي لتتمكن الأمة من الاجتماع ويكون ذلك من خلال كتاب واحد في العبادات يؤلفه الفقهاء ويعتمد عند جميع المسلمين يرد فيه الحد الأدنى للفرائض والواجبات (الكواكبي، 2012: 115، 155)

كما طالب الكواكبي بالاهتمام بالعلوم ومنع الشعوذة ووضع الحد للعلماء المنافقين و تعلم التفريق بين الأوامر الدينية والأخرى السياسية (طحان، بلا ت: 20) وهو بذلك ينطلق من الاصلاح الديني للوصول الى التغيير السياسي، فمتى صلح الدين صلحت السياسة (طحان، بلا ت: 21) فاثر التحرير الديني في الاصلاح السياسي عند الكواكبي أكثر من تأثير الحرية المطلقة السياسية، وينبه الكواكبي الى ان الفساد ليس في الدين نفسه بل في كيفية ممارسته، فالاستبداد هو الذي شوه الدين وحوله من منحاه الايجابي السليم المعافى الى اداة سلبية، بالتالي ولكي نعيد الأمور الى مجراها الصحيح يجب اعادة الاسلام الى أصله الصحيح عبر الاجتهاد والابتعاد عن التقليد الاعمى والطقوس الدخيلة، هكذا تصلح السياسة ويتحول النظام السياسي من أداة قمع الى أداة تنظيم (طحان، بلا ت: 23)

ولا بد بالتالي من وجود العلماء القادرين على القيام بهذه المهمة، " يجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزوائد الباطلة ..." (الكواكبي، 2006: 83-84) يترافق ذلك مع اطلاق حرية الرأي والتأويل للعلماء كي يظهروا بوضوح ان لا تناقض بين الاسلام والعلم (الشريف، 2002، ج: 82) وربط هذا الاصلاح باصلاح الأخلاق، فاصلاح الأخلاق عند الكواكبي معاناة " من أصعب الأمور وأحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القوي" (الكواكبي، 2006: 35-36) وهذا لا يحصل الا عبر التعليم والتربية التهذبية.

هكذا يعتبر الكواكبي بأن الخالق اوجد في الانسان " استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد، وان الانسان منذ نشأته "كالغصن الرطب" وأن التربية مالت به الى يمين الخير او شمال الشر " و "تربوياً باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ان خيراً وان شراً " وبذلك تكون "التربية ملكة يتم الحصول عليها عبر التعليم والتمرين والقدوة والاقتباس " (الكواكبي، 2006: 87)

وفي مواجهة الاستبداد الذي يدمر ما تبنيه التربية على العقلاء أن " يسعوا اولا وراء المانع الضاغط على العقول ثم يعتنوا بالتربية (الكواكبي، 2006: 97-98)

هذه الأفكار ظهرت أيضاً عند رفاعة رافع الطهطاوي الداعي الى مفاهيم الحداثة في المؤسسات من سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية (زهير الدين، 2012: 123) كما ظهرت عند محمد رشيد رضا الذي اصدر مجلة " المنار" والذي دعا الى دمج الاصلاح الديني بالاصلاح الاجتماعي، كما دعا الى تلافي البدع والتعاليم الفاسدة (رضا، 1983: 20).

16 .**معوقات النهضة وأسباب الفشل**

وقفت في وجه النهضة العربية والإسلامية في القرن التاسع عشر معوقات عديدة، فالإصلاح الديني والمجتمعي والتربوي والثقافي، الذي سعى اليه كلٌّ من جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، والطهطاوي ورضا وغيرهم، أخفق في إيجاد ثورة ثقافية متنورة تكملها عقول متنورة من بعدهم.

حتى أن ما اطلق علي لقب" المتنورين"، من قوميين وماركسيين وإسلاميين لم يعبّروا في الحقيقة، من ضمن مشاريعهم التغيرية أو التحررية، عن التنويريين الأوّل بمعناها الذي أطلقه المتنورون الأوّل، وإن كانوا رفعوا البعض من شعاراتها.

لقد كان جمال الدين الأفغاني، يسعى إلى إسلام عقلاني:

يعطي للعقل مكانته ودوره، في النظر والمناقشة والإستناد إلى الدليل والبرهان والبحث الحُرْ (الشريف، 2002، ب: 10).

وحذّر من الاستبداد الذي فرض الجهل على الأمة (الشريف، 2002، ب: 10) إلى محمد عبده ومشروعه وإصلاحاته التربوية.

لكن كل هذه الدعوى، وأبرزها تجديد الفكر الإسلامي لم تتحقق وبقيت تأثيراتها ضعيفة ومحدودة القاعدة وذلك بسبب:

1- ظروف المجتمعات التي تفتقد إلى الحريات العامة والحرية الفردية.
2- الأزمة الاقتصادية التي تعم بلاد العرب والمسلمين عامة .
3- الصراع السياسي الداخلي بين الإسلام المؤدلج والقومية العربية ودعاتها، وأصحاب الإنغلاق والتقوقع على الذات، ضمن إطار حدود جغرافية الدولة الواحدة الصغيرة.
4- الاستعمار وأهدافه وتقسيماته للمنطقة العربية، على جغرافية طائفية ومذهبية، وتغذية الصراع الطائفي والمذهبي داخل العالم العربي (الشريف، 2002، ب: 24)

يقول الفيلسوف الغربي "كنت " في تعريفه للتنوير:" التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه

وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر، ويجلب الإنسان على نفسه ذنب هذا القصور عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل، بل إلى العزم والشجاعة اللذين يحفزانه على استخدام العقل بغير توجيه من إنسان إلى آخر" (هنا، 2001: 17).

فهل استطاع المثقف العربي بعد غياب "مثقفي التنوير" من أن يستخدم عقله من دون توجيه من إنسان آخر؟

لقد استمرت النخب والدولة القومية الجديدة، فيما بعد، من استخدام الدين في خدمة النخبة السياسية والدولة القومية (الموصللي، 2001: 131).

بل وأخذت هذه الدولة تتهم الداعين إلى فصل الدين عن الدولة بالخيانة، في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه الليبرالية التي تحولت عن أهدافها كما ظهرت في الغرب، حيث ترافقت هذه الليبرالية في عالمنا العربي مع قهر وكبح وفساد وسيادة الأقلية على الأغلبية (الموصللي، 2001: 132).

هذه الليبرالية التي أدخلها المستعمر، كانت ليبرالية اقتصادية وليس ليبرالية فكرية، ليتحول بالتالي المجتمع العربي إلى مستورد من الغرب منفصل عن ثقافته.

ترافق كل ذلك مع:

1- دخول المثقف العربي في أزمة فكر وإيديولوجيا وأزمة وجدانية (الموصللي، 2001: 133).
2- الصدام بين السلفية والعصرانية.
3- ظهور المثقف العربي المقهور المسجون المعزول عن مجتمعه، أو المنفي والمهمش في الخارج، أو الجائع الذي يسعى نحو سد رمق العيش، أو الباحث عن وظيفة (الموصللي، 2001: 140)

لقد أوجد الاستعمار والدول القومية التي نشأت بعد اتفاقية سايكس بيكو، أوجد حكاماً بنوا من حولهم طبقة من رجال الدين ومن المثقفين المنتفعين، مع إعلام موّجه وقادر من مرئي ومسموع ومكتوب، وأجهض كل إمكانية لتحقيق نهضة عربية وإسلامية ومن نقل هذا العالم إلى أشبه ما يكون بعصر النهضة الأوروبية الذي أنتج الغرب الحالي.

لقد استطاعت أجهزة القمع البوليسية والاستخباراتية، التي أزهقت أرواح الآلاف من المثقفين التنويرين، وفرضت على البعض الآخر منهم الفرار والابتعاد عن أوطانهم من صنع نخب برجوازية ديكتاتورية التفكير كمشغليها

وفي ذلك يقوم الباحث د. مسعود ضاهر:

" لقد لعبت أسباب سياسية وتربوية واجتماعية واقتصادية عديدة دورها في السقوط المريع للنهضة العربية " إن ما أطلقه رجالات عصر النهضة من مقولات لم تنتشر بين العامة، لقد بقيت شعارات تذكر في الندوات الخاصة أو من خلال بعض الدراسات في وسائل الإعلام " ويضيف:" لقد رفضت السلطات العربية كافة أو نأت بنفسها عن جمع أعمال رجالات النهضة، كما لم تبادر وزارات التربية والثقافة بهذه الأعمال، وكأنها سياسة متبعة أوجدت القطيعة بين الباحثين من معاصرين في العالم العربي وأفكار رجالات عصر النهضة، بل وقد ظهرت من جديد الأفكار والكتب التي تدعو إلى سلفية أبعد ما تكون عن دعوات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم من رجالات عصر النهضة (ضاهر، 2005: 14).

ولمهدي عامل، نظرية ملفتة حول أسباب فشل " النهضة العربية"، فهو يعتبر أن المشكلة أساساً هي أننا نعتبر أن هذه النهضة هي نهضة "العقل "أو "الثقافة " في الغرب و" تخلف" العقل في المجتمع العربي وبالتالي تمّ ربط هذه النهضة " بالفكر " الذي هو " عامل النهضة أو سببها، أو عامل التخلف أي سببه "(عامل، 1989: 88).

وهذا ما يعتبره تفسيراً خاطئاً، إذ علينا أن نطرح السؤال كما يقول " مهدي عامل " بشكل آخر:" ما هي الأسباب الاجتماعية التاريخية التي مكنت أوروبا الغربية من القيام بالثورة الصناعية ... ما هي تلك الأسباب التي منعت البلدان العربية من القيام بهذه الثورة قبل أوروبا الغربية، مع العلم بأن الشروط العلمية والتقنية التي سبقت تلك الثورة كانت متوفرة في هذه البلدان"؟ (عامل، 1989: 89).

لقد إعتبر مهدي عامل كما إيف لاكوست، المؤرخ الفرنسي، أن العامل الاجتماعي هو سبب تقدم الغرب وتخلّف الشرق، فلقد تكونت في أوروبا بورجوازية "إستخدمت المعارف العلمية والتقنية في حقل الإنتاج الإقتصادي بشكل كان حافزاً قوياً لتطور العلم والتقنية "(عامل، 1989: 89). بينما في المجتمعات العربية في القرون الوسطى، لم تعرف مثل هكذا طبقة، بل عرفت "علاقات الإنتاج الإقطاعية" المستبدة، فالبرجوازية الأوروبية إستفادت من النظام الإقطاعي السابق لتولد ولتحول علاقات الإنتاج الإقطاعي وتقضي عليه شرطاً لولادتها، وبالتالي ولادة الإنتاج الرأسمالي، هذه الولادة رافقتها ثورة في حقول الفكر والسياسة والإقتصاد والأخلاق والفن...وبالتالي ولدّت فكراً جديداً (عامل، 1989: 110).

أما في العالم العربي فلم يولد شيئ جديد بل كانت الدعوة إلى " نهضة الشيء نفسه الذي عليه أن ينهض من ركود أو خمود، أو هي النهضة بالشيء هذا، بمعنى أن شيئاً آخر عليه أن ينهض به ".

وبالتالي " لم تكن نهضة هذه الطبقة ولادة فكر جديد، ولم تجد هذه الطبقة ضرورة في أن تقطع مع فكر الطبقة المسيطرة السابقة، بمعنى آخر، أن الطبقة العربية الجديدة سعت إلى تقليد أو التماثل مع البرجوازية الغربية، لكنها لم تستطع أن تكون مثلها، مع بقائها أمام ماضيها الطبقي السابق الذي خرجت منه دون القضاء عليه " لأنه دائم التجدد بتجددها بالذات"(عامل، 1989: 113).

هذا التفكير العلماني لأسباب فشل النهضة العربية يقابله تفسير ديني، فالمفكر الإسلامي "أبو الحسن الندوي "، يعتبر أن فشل مشروع النهضة هو بسبب أن العالم الإسلامي والعربي قد تنازل أساساً عن مكانته العلمية واستقلاله الفكري ليصبح عيالاً على الغرب متطفلاً على مائدته"!!

وبالتالي لم يستطع علماء الشرق من مواجهة الغرب وأفكاره، أو حتى الإبتكار أو الإستقلال عنه حتى آمن بعضهم بأن الحضارة الغربية هي أفضل ما توصل إليه العقل البشري (الندوي، 2002: 270–280).

ثم يقدم الندوي الحلول لهذه المشكلة عبر الاستقلال العلمي والزعامة العلمية للشرق وتدوين وتأليف و... من دون أن يعطي حلولاً واضحة ومن دون أن يعالج الأسباب الكامنة وراء هذا الفشل للنهضة العربية والإسلامية .

وختاماً لا بد من التذكير من أن العالم الإسلامي والعربي بدأ بالإنحطاط تاريخياً في العصر العباسي، حين وصلت ووصلت إلى سدة السلطة فيه عناصر غريبة عنه، من أتراك (سلاجقة)، وأيوبيين (أكراد)، ومماليك (خليط من مغول وأتراك)، مع ما شهده هذا العالم الإسلامي والعربي من غزوات وإحتلالات ضخمة، من الصليبيين (1098م) إلى المغول (1258م)، إلى العثمانيين (مع ما عرف عصرهم من خمود فكري وثقافي) إلى إحتلال (فرنسي –إنجليزي)، كل هذه العوامل والظروف لن تسمح بنهضة سريعة على يد شرذمة من المثقفين التنويرين الذين سطعوا بشكل فجائي وسريع و لعبوا دوراً بارزاً ساعدتهم فيه مطبعة" نابليون بونابرت" و"النهضة الأوروبية".

هؤلاء التنويريون، إن كان في مصر أو في سوريا والعراق، لم يستطعوا مواجهة فكر تاريخي غارق في الجهل منذ عصر السلاجقة وما قبله، فهذا الفكر الذي يحمل تاريخاً من الجهل المركب لا ينتهي فجأة فلا بُدَّ من سنوات طوال حتى يمكن أن نحفر في عقول الأجيال بذرة "التنوير" هذه البذرة التي نجد أنها معرضة للتلف أمام التطور التكنولوجي السريع والضخم، وأمام القرية الكونية، لنصبح اليوم بحاجة الى تكنولوجيا وعقول كونية تواجه خطر "قصف العقول" الأقوى بآلاف المرات من السابق، والذي يدفع عليه مليارات الدولارات ليحول أجيالنا إلى "مسخ " تحركه أيدي خارجية (شمس، 2013: 166–167).

إنها دعوة إلى تكنولوجيا التنوير، وقصف العقول بالتنوير، وإلى آلاف المليارات من الدولارات!!

المصادر

[1] القرآن الكريم، آل عمران آية 110.
[2] ابو رية، محمد. (2006). *جمال الدين الأفغاني نوابغ الفكر العربي*. مصر: دار المعارف، ط2.
[3] بيرو، نوربيرتا. (بلا تأريخ). *الكواكبي المفكر الثائر*. تر. علي سلامة ، بيروت: منشورات دار الآداب.
[4] الجبرتي. (بلا تأريخ). *عجائب الآثار*. بيروت، دار الجيل، ج2.
[5] حمية، علي. (2003). *الثورة الفكرية الكواكبية مبرراتها ومرتكزاتها ، تيار الإصلاح الديني ومصائره في المجتمعات العربية*. دمشق: المعهد الفرنسي للشرق الأوسط ، قسم الدراسات العربية.
[6] رضا، محمد رشيد. (1983). *ديوان النهضة*. بيروت: دار العلم للملايين.
[7] رضا، محمد رشيد. (2006). *تاريخ الاستاذ محمد عبده*. القاهرة: دار الفضيلة ، ط2.
[8] زهير الدين، صالح. (2012). *الحركات والأحزاب الإسلامية وفهم الآخر*. بيروت: دار الساقي ، ط1.
[9] الشريف، ماهر. (2000، أ). *رهانات النهضة في الفكر العربي*. دمشق: دار المدى، ط1.
[10] الشريف، ماهر. (2002، ب). *كيف ساهم انطفاء الإصلاح الديني في تعثر مشاريع النهضة العربية*. مجلة الطريق، ك2- شباط.
[11] الشريف، ماهر. (2002، ج). *مشروع الإصلاح المجتمعي لدى عبد الرحمن الكواكبي*، مجلة الطريق، 5أيلول، ت1.
[12] شمس، طارق. (2013). *العثمانيون عائدون*. مجلة العربي، العدد650، يناير.
[13] ضاهر، مسعود. (2005). *المعلم بطرس البستاني ومأساة رواد النهضة بنا*. جريدة المستقبل، 30 ك 2 2005، العدد 1819.
[14] طحان، محمد جمال. (بلا تأريخ). *أبعاد الإصلاح الديني عند الكواكبي*. المعهد الفرنسي.
[15] عامل، مهدي. (1989). *أزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية*. بيروت: دار الفارابي، ط6.
[16] عزب، خالد. (2009). *محمد عبده وعقلانية الخطاب*. جريدة الحياة، 15 آب 2009، العدد 16934، ص14.
[17] عمارة، محمد. (1985). *الإمام محمد عبدة*. بيروت: دار الوحدة.
[18] عمارة، محمد. (2006). *الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده*. القاهرة: دار الشروق، ط2، ج1.
[19] قطب، محمد. (1986). *واقعنا المعاصر*. جدة: مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، ط1.
[20] قلعجي، قدري. (2013). *ثلاثة من أعلام الحرية*. بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط3.
[21] الكواكبي، عبد الرحمن. (2006). *طبائع الإستبداد*. بيروت: دار النفائس، ط3.
[22] الكواكبي، عبد الرحمن. (2012). *أم القرى*. تحقيق محمد طحان، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، ط5.

[23] الموصللي، أحمد. (2001). *تجارب التنوير وإخفاقاتها في العالم العربي*. مجلة عالم الفكر.
[24] الندوي، أبو الحسن. (2002). *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*. دمشق: دار القلم، ط2.
[25] هنا، غانم. (2001). *النزعة العقلية وأثرها في حركة التنوير*. مجلة عالم الفكر، المجلد 29، آذار.